

## الحديث عن تجسد المسيح بالدموع

### الشيخ يوسف الفاتوبيدي

#### نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

النص التالي جزء من حديث مسجّل للشيخ يوسف الفاتوبيدي، يظهر فيه عمل الروح القدس، حيث أن الشيخ الأُمّي نسبياً يعبر عن أمور لاهوتية بلغة قريبة من كل الناس تعكس عيشه للحياة الروحية التي يحكي عنها. يذرف الشيخ دموعاً غزيرة أثناء حديثه، وهذا بحد ذاته صورة عن عمل الروح القدس.

نبدأ اليوم بأعظم احتفال، ولن نتمكن أبداً من التعبير عنه بالكلمات... توسلنا إلى مسيحننا ليسمح لنا بالسجود للأرض حيث وُلد وللخرق التي غطته، أن نعانق بوقار أمّه الفائقة القداسة التي حضنته. كل هذا يا أعزائي لأي غرض؟

هنا يكمن الأمر الخارق الذي إذا تمكّن الإنسان من إدراكه، يصير أكبر سببٍ لتقدمه الروحي ويقظته من بلادة عدم الإحساس.

إنه هو اليوم كطفلٍ في العالم البارد. هو الذي به كان كل شيء. لقد صنّع الكون، كل ما يرى وما لا يرى، المادي وغير المادي، وصنع كل شيء أمراً بجبروته، كسَيّد كل شيء. أما الإنسان فقد صنعه بيديه. أراد عمل نسخة من النموذج الأول. في حين أن كل شيء، كما ذكرث، قد كُؤن بأمره، حتى الملائكة. ترون أنه خلق الإنسان بيديه، وهو يفتخر به، ويثبت أنه صنّعه "على صورته ومثاله"، وبالتالي جعله متقبلاً لكل الصفات الإلهية.

لكنه مع هذا أوصى. لم تكن هناك حاجة لأمر، وأريدكم أن تكونوا منتبهين لذلك. بالتأكيد أوصى الله آدم بحفظ الطاعة والاستكانة للسلطان، لمرشده، لأبيه وبألا يأكل من الثمرة المحرّمة التي تولّد الموت والفساد. لم تكن تلك أوامر تُعطى بطريقة إكراهية كالتي يستخدمها الرئيس لمخاطبة مرؤوسيه. كونوا منتبهين لذلك لأنها أساس نكبتنا كما هي أساس رجعتنا إذا كنا نسعى إليها.

كل شيء سببي، وعلى هذا النحو تم إنتاج البشر من سببٍ أول، ولا يمكنهم الصمود أو البقاء من دون أن يكونوا في علاقة مستمرة مع السبب الأول. كمثل، فكروا في الفروع التي تنمو من شجرة جميلة. إذا قطعنا هذه الأغصان ثم وضعناها في الماء وقمنا بإضافة الأسمدة، تبقى عاجزة عن البقاء على قيد الحياة. بمجرد أن تتخلّى عن الجذع، يصبح من المستحيل عليها البقاء على قيد الحياة. وبالتالي، فإن طاعة والتزام جميع الكائنات التي خلقت بالصلاح الإلهي يجب أن يكونا في شكل عملي يؤهل هذه الكائنات لامتلاك قوة الكينونة والوجود. وإلا هذا مستحيل... وانتبهوا للأهمية.

إن الشيطان الذي كان السبب الأول للخسارة، لأنه ارتد عن الله ليصير إلهًا بذاته، فقد هلك على الفور تمامًا دون أمل في العودة. ثم، بدافع الكراهية، يخدع الإنسان بقله خبرته. انخدع الإنسان واستمع لما قال له الشيطان. فانقطع على الفور عن السبب. ونتيجة لذلك يسقط الإنسان ويفقد شخصيته ويُنفى إلى أرض الفناء والموت والضياع وكل الشرور التي تحيط بنا. كل هذا نتيجة العصيان. إن السبب العملي هو الكبرياء لأنه انخدع من الشيطان بأنه يصير إلهًا بدون الله.

السبب الثاني هو الأنانية وحب الذات لدرجة أن كان عليه أن يأكل مما يحبه. كل هذه الأنانية وحب الذات هما سبب الدمار وجذر اضمحلال الكون كله.

كان بإمكان إلهنا وأبينا الواسع الرحمة، بعد ارتدادنا، أن يأخذ حفنة من الأرض وينفخ فيها مرة أخرى ويصنع إنساناً آخرًا. لكن هذه ليست عاطفة الأب وقدرته. لم يفعل ذلك! بدلاً من ذلك، قرر أن يأتي بنفسه، ليعيد بنفسه الذي خلقه بيديه، ويعطيه ما وعده به منذ البداية. هذا هو سبب تجسد الكلمة الإلهية. كان لابد أن يأتي الله، هذا الخالق، ليعيد التوازن. ليس بطريقة إلزامية، بل بطريقة أبوية. كما ترون، لتحقيق ذلك، كان عليه أن يتواصل وجوديًا مع أقنوم الإنسان.

ومع ذلك، لم يستطع أن يتواصل مع الأقنوم البشري فوجدنا أنفسنا في ناموس الانحلال والموت. من أجل هذا، قرر وجهز مقدّمًا الابنة المقدسة، والدته. منذ أن كانت طفلة صغيرة أخذها في قدس الأقداس وهناك اعتنت بها الملائكة. ليس فقط أنها لم تعمل شرًا وحسب، بل حتى لم تفكر به. في عظمة نقاوتها، أصبحت هذه الابنة الفائقة القداسة السبب الذي جعل الله يقبل أن يدخلها، ليأخذ من طهارتها الإنسان الجديد لا الساقط.

إنه يأتي ويأخذ من أمه الفائقة القداسة، من أحشائها الداخلية، من صفاء نقاوتها، من الدم الشريف والفائق القداسة، في البداية أقنوم، فيتجسد ويبدأ في تشكيل شكله الإنساني. لكن انتبهوا إلى إخلاص هذه الابنة وإلى أي مدى يدين لها المجتمع. هذه الابنة الممتلئة نعمة.

بهدف التعاون الكامل، عندما قرر الله الفائق الصلاح أن يفعل ذلك، تنازل ليسأل الابنة عما إذا كانت ترغب... الله ذو القدرة المطلقة، الذي اعتنى بها داخل قدس الأقداس وحرسها هناك فقط من أجل هذا السبب. ها هو لا يتدخل دون أن يسألها. حتى تتمكن أيضًا من إثبات صوابية العودة ومعرفة الله.

ثم قال لها الملاك: "ستصيرين أمًا وتلدين ابن الله." فسألت: "كيف يكون هذا ممكنًا وأنا عذراء؟" قال لها الملاك: "سيأتي ملاك الرب ويحمل فيك نعمة الروح القدس وما سوف يحدث سببه الله نفسه الذي سوف يتجسد."

فقال الفتاة الصغيرة: "أنا أوافق. فليأت، فلتكن مشيئة". انتبهوا للدقة! فمن ثم تلقى الله الطبيعة البشرية. "أخذ الطبيعة"، بمعنى النقاء الذي هو أساس الروحية التي هي مركز شخصية الإنسان وجميع الكائنات العاقلة.

إنه يحفظ أمه العذراء، تمامًا كما استقبلها، فهو يبقى نقيًا وبتولاً ولم يتواصل مع الانحلال والسقوط حتى يكون المُجَدِّد و"المَرَّم". كيف له أن يخلق عدم الفساد إذا كان في شركة مع ناموس الانحلال؟ من أجل خلاصنا، عانى من هذه التجربة التي لا يمكن تصورها والتي يستحيل وصفها، لا في العالم الحالي وحسب، بل أيضًا في الأبدية بكيئتها. إنه تنازل الإله الكلمة، تجسد الإله الكلمة. الله كما نؤمن هو الثالوث الأقدس. هو الآب والابن والروح القدس. هو في ثلاثة أقانيم ولكن بطبيعة واحدة. كان على أحد هذه الأقانيم الثلاثة أن يقوم بهذه المهمة والابن كان الأنسب لذلك. مَنْ كان يُدعى ابنًا، ابن الآب، كان عليه أن يصير ابن الإنسان حتى يظل الأَقْنوم كما هو. أن تكون ابنًا لله وابنًا للإنسان، هذا هو الإنسان.

انظروا إلى هذه النقاوة، هذه الفتاة التي يمثل هذه الطهارة تبسط يديها لتتلقى الإله الكلمة من يمين الإله والآب. تلك التي لا تليق بها الطبيعة كلها. الفتاة تبسط يديها وتأخذه وتضعه في داخلها ليتلقى الطبيعة البشرية. لا ننسى هذه الأمور يا إخوتي! فهي تَمَّت من أجل تجديدنا وخلصنا! ولكن كون سبب الكارثة هو أنانية الإنسان ومحبه لذاته. كان على الإله الكلمة أن يقوم بدوره، لمواجهة الكارثة، ولاقتلاع الأنانية ومركزية الأنا...

هذا هو سبب آلامه الفائقة القداسة. لقد تنازل حتى الصلب والألم والحزن لكي يقتلع جذور اللذة التي خلقها الإنسان في عصيانه. تواضع... كيف يمكنني أن أصف بالكلمات... أن تضطر كل الخليقة التي لا يمكن وصفها، وهو الذي يحكمها ويأمرها، أن تتواضع في القلب لا في المظهر وحسب من أجل اقتلاع الأنانية البشرية واستعادة التوازن... إنه سرّ الأسرار.

Source: Elder Joseph of Mount Athos. Speaking on the Incarnation of Christ in Tears. Orthodox Teaching of the Elders (otelders) December 23, 2021. <http://otelders.org/wisdom-from-mount-athos/speaking-on-the-incarnation-of-christ-in-tears-christmas-elder-joseph-of-mount-athos/>